

التأويل عند الصوفية : دلالات جديدة لمصطلحات قديمة

الفتنة أنموذجا

د/ محمد رافة *

البريد الإلكتروني: Times New Roman حجم 12

Moh—58@hotmail.fr

جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف(الجزائر)

تاريخ القبول: 2019/06/17

تاريخ الاستلام: 2019/06/06

الملخص:

لقد أدرك أسلافنا أن فهم كتاب الله تعالى ، يقتضي الوقوف على علوم لا بست القرآن الكريم ، حيث تشكل علوم اللغة بمستوياتها الصوتي ، النحوي ، الصرفي والدلالي حجر الأساس ، فقد حظيت باهتمام كبير وشهدت تطورا في التقعيد والتصنيف والتحليل. لكن الإنصاف يقتضي الإشادة بما أفرزته الدراسات الغربية الحديثة للتراث اللساني لا سيما ما تعلق منها بالجانب التحليلي واستخدام مناهج حديثة ومقاربات في دراسة النص الأدبي كعلم الدلالة . وفي ظل هذه التطورات يأتي الاهتمام - في الدراسات القرآنية الحديثة - بالمفردة القرآنية باعتبارها مدخلا لتحليل الخطاب القرآني. ولعل التطور الفكري والحضاري الذي يشهده العالم ، يضع الباحثين المسلمين أمام تحديات تكمن في استثمار ما توصل إليه العلم الحديث في حقل علوم اللغة ، واستخدام مناهج حديثة قادرة على تقديم رؤية متكاملة لموضوع من موضوعات القرآن الكريم أو مفردة من مفرداته ، دون أن يغفلوا عن خصائص النص الشرعي الذي يختلف عن النص الأدبي الوضعي

الكلمات المفتاحية: التأويل ; الخطاب ; الدلالة ; المصطلح ; المفهوم ; الصوفية

Abstract :

Our ancestors realized that understanding the book of God requires learning about the sciences of the Holy Quran, where the linguistic sciences, in terms of their vocal, grammatical, morphological and semantic levels, have become a major concern. However, fairness requires praise for the recent Western studies of the linguistic heritage, especially those related to the analytical aspect and the use of modern approaches and approaches in the study of the literary text as a semantics. Under these developments comes attention - in modern Koranic studie- Individual Quranic as an introduction to the analysis of the Koranic discourse. Perhaps the intellectual and cultural development witnessed by the world, puts Muslim researchers in front of challenges lies in the investment of modern science in the field of language sciences, and the use of modern methods able to provide an integrated vision of a topic of the Koran or one of its vocabulary, without forgetting the characteristics of the text which differs from the positive literary text .

Keywords: Interpretation ; speech ; significance ; term ; concept ; Sufism

مقدمة :

الحمد لله الذي أنزل القرآن تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة للعالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وسيد الخلق أجمعين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين وبعد: لا شك أن مشروع نهضة أمتنا الإسلامية يمر حتماً عبر الإصلاح الديني الذي يعد القرآن الكريم مصدره الأول ، ومن هنا تبرز أهمية الدراسات الإسلامية للتراث الفكري بشكل عام ، والدراسات القرآنية بشكل خاص.

لقد أدرك أسلافنا أن فهم كتاب الله تعالى ، يقتضي الوقوف على علوم لا بست القرآن الكريم ، حيث تشكل علوم اللغة بمستوياتها الصوتي ، النحوي ، الصرفي والدلالي حجر الأساس ، فقد

حظيت باهتمام كبير وشهدت تطوراً في التعقيد والتصنيف والتحليل. لكن الإنصاف يقتضي الإشادة بما أفرزته الدراسات الغربية الحديثة للتراث اللساني لا سيما ما تعلق منها بالجانب التحليلي واستخدام مناهج حديثة ومقاربات في دراسة النص الأدبي كعلم الدلالة. وفي ظل هذه التطورات يأتي الاهتمام - في الدراسات القرآنية الحديثة - بالمفردة القرآنية باعتبارها مدخلاً لتحليل الخطاب القرآني. ولعل التطور الفكري والحضاري الذي يشهده العالم، يضع الباحثين المسلمين أمام تحديات تكمن في استثمار ما توصل إليه العلم الحديث في حقل علوم اللغة، واستخدام مناهج حديثة قادرة على تقديم رؤية متكاملة لموضوع من موضوعات القرآن الكريم أو مفردة من مفرداته، دون أن يغفلوا عن خصائص النص الشرعي الذي يختلف عن النص الأدبي الوضعي. **معنى التصوف ومنهج الصوفية في التفسير**

أ - معنى التصوف

صارت كلمة التصوف، ومذهب المتصوفة -عند من يرى أنها مذهباً- من القضايا التي تثير الكثير من الجدل والتساؤلات، وفي كثير من الأحيان تصدر حولها أحكاماً بحق أو بغير وجه حق، ويرى الباحث أن هذه الأحكام في أغلبها هي نتاج موروث فكري، توارثه الخلف عن السلف حتى صار جزءاً من قناعتنا إن لم نقل عقيدتنا، والحقيقة أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره. **فما هو التصوف وما مرجعيته.** مشكلة القارئ العربي أنه يقرأ تراثه متذكراً لا مكتشفاً،

بمعنى أن خلفية الموروث الفكري تطارده دوماً، وفي كثير من الأحيان تحول دون تحرر فكره وإبداعه. ولعل شعوره بالطمأنينة للانتماء الحضاري وعدم المغامرة في الخروج عن الضوابط التي تعارف عليها أسلافه وارتبطت بمقدساته كان وراء بناء عقليته عقلية العربي، لذا وجدت في الوقت الحالي أصوات تنادي بإعادة قراءة التراث بموضوعية، بعيداً عن الذاتية مع التجرد من الميول والعواطف. غير أن ما يحول دون ذلك هو تواضع العلماء على سلسلة من القضايا الفكرية توارثها الخلف عن السلف على أنها حقائق علمية متواترة، لا يزيغ عنها إلا هالك. فصار القارئ العربي يبحث في كثير من هذه القضايا وهو مثقل حتى لا نقول مكبل بهذا الموروث، فيحمل الحكم في ذهنه قبل صدور الحكم - نقصد ما يوصل إليه البحث - فيولد ميتاً. وخلافاً لكل المفسرين على اختلاف مناهجهم واتجاهاتهم، فإن الصوفية يلتزمون سلوك طريق التزكية وتطهير النفس، فتتقدح له من الأنوار وتنكشف لهم الأسرار ما استغلق فهمه، وتظهر لهم إشارات خفية ربانية غير كسبية، وتلك كرامة يمن بها الله عز وجل على من صلح من عبادة وبلغ

تلك المقامات قال تعالى " وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " البقرة: 28 وقال ﷺ " اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله " ⁽¹⁾ وفي هذا الشأن يقول الشيخ الشعراوي: " من الناس من يصل من طاعة الله إلى كرامة الله ، ومنهم من يصل من كرامة الله إلى طاعة الله ، فلما يحصل قرب من الله قريب والعبد قريب جده المعية تعطيه سلطات كبيرة ، وهذه اسمها المصافاة إذا أحببت الله أحبك " ⁽²⁾ وانطلاقا من هذا يرجح الشعراوي أصل تسمية الصوفية بهذا الاسم إلى هذا الاعتبار أي أن "أل" في لفظ "الصوفي" إسم موصول بمعنى الذي صوفي ، الصوفي صافي الله عز وجل فصافاه الله . قال ﷺ " ولا يزال عبيدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألتني لأعطينته ، ولئن استعاذني لأعيذنه " ⁽³⁾ معلوم أن الدين الإسلامي يقوم على ثلاثة ركائز أساسية هي: العقيدة والشريعة والأخلاق تلك التي بينها الرسول ﷺ في حديث جبريل الذي رواه عمر ﷺ والذي جاء فيه جبريل عليه السلام على هيئة رجل فقال يا محمد أخبرني عن الإسلام (الجانب التشريعي) ثم أخبرني عن الإيمان (جانب العقيدة) ثم أخبرني عن الإحسان (جانب التزكية والأخلاق) وهو ما انشغل به الصوفية " اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " فكما أن علم التوحيد موضوعه العقيدة وعلم الفقه موضوعه التشريع فإن علم التصوف موضوعه الأخلاق والتزكية يقول د. محمد الكتاني : "التصوف منهج أصيل في الإسلام ليس خارجا عن الإسلام لأن مهمة النبوة جاء بها النبي ﷺ تتمثل في ثلاثة أمور الأمر الأول التبليغ قال تعالى : يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ " المائدة: 69 المهمة الثانية : تنفيذ الأحكام وقد كان ﷺ قائما بها المهمة الثالثة مهمة التزكية قال تعالى : هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة " ⁽⁴⁾

ويضيف أنظر كيف قدم الله تعالى التزكية على العلم يرى الباحثين أن جذور التصوف إلى الإمام أبو القاسم الجنيد (ت 297 هـ) وهو من القرون الفاضلة التي أخبر بها الرسول ﷺ قال الإمام أن علومنا مشيدة بالكتاب والسنة هذا الإمام مدحه الإمام ابن تيمية هو إمام سلفي معروف قال : من سلك طريق الجنيد فقد نجا وسعد نخلص من هذا أن التصوف منهج أصيل في الإسلام هو منهج الإصلاح منهج التزكية منهج الإقبال على الله جل

في علاه هو رائد هذه المدرسة الروحية التي وضع أسسها مولنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه

ب- منهج الصوفية في التفسير: استقراء نصوص المفسرين يكشف لنا اختلاف مناهج المفسرين وتعدد اتجاهاتهم في تفسير كتاب الله عز وجل وبيان معانيه ، مناهج يتقارب بعضها من بعض وينأى بعضها عن بعض نحو: الاتجاه اللغوي الاتجاه الفقهي الاتجاه العلمي التجريبي والاتجاه الإشاري ...

والمقصود بالتفسير الإشاري: تأويل القرآن بغير ظاهره لإشارة تظهر للمفسر ، وهو غالبا ما يكون عند المتصوف وقبل ذلك لا يجزم أنه المراد من الآية بل يرى أن هناك معنى آخر تحتمله الآية ويراد منها هو المعنى الظاهر الذي يسبق إليه الذهن قبل غيره معلوم أن التفسير هو نتاج اجتهاد العالم الذي تتوفر فيه الشروط للخوض في إظهار معاني القرآن الكريم وبيان مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية . وهو في جميع الأحوال علم التفسير ليس من العلوم القطعية بل هو اجتهاد قد يصيب صاحبه وقد يخطئ وهو في كلتا الحالتين مأجور . وقد أمرنا الله عز وجل في كتابه الكريم بالتدبر والتفقه في قوله تعالى : أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالًا " محمد: 25، وقال أيضا : فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا النساء: 77 والفقه غير الفهم ، الفقه فهو فهم لغرض المتكلم من وراء كلامه ، وهو قدر زائد على مجرد الفهم ، فهو فهم وفطنة وإدراك للأشياء الخفية . وإذ نعلم من النصوص الشرعية أن لكل آية من القرآن الكريم ظهر وبطن ، فلا شك أن البطن هو الفقه الذي لا يتوصل إليه بعلوم اللغة وغيرها من العلوم التي لا بست القرآن الكريم . يقول الإمام الشاطبي في الموافقات: " ... فحيث ينعى القرآن على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثا يحضهم على التدبر في آياته، لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون نفس الكلام أو حضهم على فهم ظاهره، لأن القوم عرب والقرآن لم يخرج عن لغتهم فهم يفهمون ظاهره ولا شك، وإنما أراد بذلك: أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب، وحضهم على أن يتدبروا في آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده، وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم. " (5)

غير أن هناك من العلماء من ينفي أن يكون كلام الصوفية في القرآن تفسيرا ، ذكر ذلك

الزركشي في البرهان حيث قال: " فأما كلام الصوفية في تفسير القرآن فقليل ليس تفسيراً وإنما هي معان ومواجيد يجدونها عند التلاوة كقول بعضهم في في قوله تعالى: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ " التوبة: 12

المراد بالكفار النفس ، فأمرنا الله تعالى بقتال من يلينا ، وأقرب شيء إلى الإنسان نفسه " (٦). صار كلام الزركشي مرجعية لكثير ممن جاءوا بعده ، فلعل الزركشي بهذا المذهب يرى أن التفسير هو القول بأن مراد الله تعالى من الآية هو كذا وكذا وفق ما تقرره قواعد نصوص فهم اللغة بجميع مستوياتها ، مع الوقوف على العلوم التي لا بست القرآن الكريم من القراءات وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وغيرها من العلوم الواجب توافرها في كل من يتصدى لتفسير كتاب الله تعالى ، ومع إحاطته بالعلوم كلها وحسن نيته يبقى تفسيره اجتهاداً بشرياً لا يمكن القطع به . لذا وجدنا كثير من المفسرين يعقبون على تفسيراتهم ومذاهبهم بعبارة " والله أعلم بمراده " والسؤال الذي يطرح : ألا يُحتمل أن تكون المعان والمواجيد من بواطن الآيات التي جاءت بها النصوص الشرعية خاصة وأن لها شواهد في سيرة الصحابة رضي الله عنهم ؟ و ما يمنع أن يفتح الله على عبد من عباده ويكشف له من الأسرار والحقائق ما استغلق على غيره ؟ معلوم أن الناس مختلفون في أفهامهم ومداركهم ، متباينون في آرائهم . فقد تتجاوز واستنباطاتهم ظاهر النص وهذه سنة الله تعالى في خلقه ، يُفندها واقع الناس وأحوالهم قبل النصوص الشرعية . روى البخاري عن ابن عباس ؓ قال: "كان عمر يدخلني مع أشياء بدر، فكأن بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: أنه من حيث علمتم، فدعاه ذات يوم فأدخله معهم فما رأيت أنه دعاني يومئذ إلا ليرهم، قال: ما تقولون في قوله تعالى: {إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ} فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له: قال إذا جاء نصر الله والفتح، فذلك علامة أجلك فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول " (٧)

فلا شك أن كثيراً من الصحابة رضي الله عنهم لم يتجاوز فهمهم للسورة أكثر من ظاهرها بينما ابن عباس ؓ انفرد بفهم غرض المولى عز وجل من وراء كلامه ، فنقول أنه

فقه السورة ، ومعلوم أن الناس يتفاوتون في العلم بقدر تفاوتهم في الفقه . وتفسير ابن عباس لسورة النصر على هذا النحو ، هو حد التفسير الإشاري وعينه لنخلص إلى القول أن هذا النوع من التفسير الذي ينسب للصوفية ظهرت بوادره ومرجعياته مبكرا . نماذج التفسير الإشاري في مادة ف ت ن :

لا شك أن الدراسات القرآنية التي تجعل من القرآن الكريم مادتها الأولية ، ومن آياته الشواهد الاستدلالية ، تعطيه الصدارة على غيره من الدراسات ، ونتائجه أقرب صوابا في هذا الجانب التطبيقي من البحث وقع اختيار الباحث على مادة ف ت ن لان مادة "فتن" وهي من أكثر المواد ورودا في القرآن الكريم حيث وردت بصيغها المختلفة في ستين موضعا (8) ثم نقرأ لباحثين وهم يصدرن أحكاما وشهادات عند حديثهم عن مصطلح الفتنة ، ووصفه بأنه في غاية التعقيد والتداخل... وأنه لا يزال لغزا عصيا على الحل... وأن الوصول إلى حقيقته أدنى منه خبط الفتاد... وغير ذلك وسنقتصر على اثنين من أهم كتب التفسير الإشاري : وهما "حقائق التفسير" للسلي (ت 412 هـ) و"تفسير لطائف الإشارات" ،

للشيري (ت 465 هـ) فتنة الله لعبادة سنة في خلقه : قال الله تعالى ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ العنكبوت 1-2 قال السلي (ت 412 هـ): "قوله تعالى : الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون قال ابن عطاء : ظن الخلق أنهم يتركون مع دعاوي المحبة ولا يطالبون بحقائقها فحقائق المحبة هي صب البلوى على المحب وتلذذه بالبلاء فبلاء يلحق جسده وبلاء يلحق قلبه وبلاء يلحق سره وبلاء يلحق روحه فبلاء النفس في الظاهر الأمراض والحمى في الحقيقة ضعفها عن القيام بخدمة القوى العزيز بعد مخاطبته إياه بقوله : وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، وبلاء القلب تراكم الشوق ومراعاة ما يرد عليه في وقت بعد وقت من ربه والمحافظة على أحواله مع الحرمة والهيبة ، وبلاء السر مع من لا مقام للخلق معه والرجوع إلى من لا وصول للخلق إليه وبلاء الروح الحصول في القبض والابتلاء بالمشاهدة وهذا ما لا طاقة لأحد فيه . قال بعض السلف : إن الله إذا أحب عبدا جعله للبلاء عرضا" (9)

قال ﷺ "وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط" (10) هذا النص يظهر جليا تأويل "الإيمان" بالمحبة : محبة الله ، وتأويل الفتنة التي هي في الظاهر يُبتلى بها المدعي للإيمان ليظهر صدقه من كذبه في دعواه للإيمان

باللسان تأويلها يلوغ مقام حقائق المحبة حيث التلذذ بالبلاء مظهرها من مظاهره فيكون ذلك دليل صدق دعواه .

وغير بعيد عن هذا ما ذكره خلفه وتلميذه القشيري (ت 465 هـ) فقال : " فمن زاد قدر معناه زاد قدر بلواه " (11) ومفهوم الصوفية للبلاء ودلالته غير البلاء الذي عرف عند جمهور العلماء وهو أنه إذا إراد الله تعالى رفع درجات المؤمن الصابر ، فيبتليه بالمصيبة ليرضى ويصبر فيؤتي أجر الصابرين في الآخرة ، ويكتب عند الله من الفائزين ، وقد رافق البلاء الأنبياء والصالحين فلم يغادرهم ، جعله الله تعالى مكرمة لهم ينالون به الدرجة العالية في الجنة ، وهذا المعنى جاء الحديث السالف الذكر . للعلم المرض العضوي والجسدي كالحمى وغيرها بل في وعند الصوفية : عجزه وتقصيره في القيام بخدمة الخالق ، العبادة التي خلق من أجلها وعبر عنها القشيري (ت 465 هـ) بقوله : " بإخراجها عن أوطان الكسل وتصريفها في أحسن العمل " (12)

وأما بلاء القلب تراكم الشوق ودلالة الشوق عند الصوفية هبة خص الله بها المحبين ، فمن أحب الله اشتاق إلى لقاءه " قال ذ والنون: الشوق أعلى الدرجات ، وأعلى المقامات ، فإذا بلغها الإنسان استبطأ الموت شوقا إلى ربه وحبًا للقاءه والنظر إليه " (13) وبلاء الروح الحصول في القبضة والابتلاء بالمشاهدة فسرهما القشيري بقوله : " وهو التجرد عن محبة كل أحد والتفرد عن كل سبب ، والتباعد عن كل المساكنة لشيء من المخلوقات " (14) وإرشادا لعباده بالثقة فيه والاعتماد عليه لئلا يهنوا أو يضعفوا أو يستكينوا حال الابتلاء سواء بخوف أو بجوع أو نقص في مال أو نفس أو ثمرات وأن عليهم الثبات والثقة في نصر الله ومعونته . نخلص إلى القول : أننا أمام دلالات جديدة لمصطلحات قديمة

فتنة الشيطان: قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الأعراف 26

قال السلمي (ت 412 هـ): " الذي أخرج أباهم من الجنة اتباع النفس والهوى والشيطان . سمعت أبا بكر الرازي يقول : سمعت ابن عطاء يقول : خروج آدم من الجنة وكثرة بكائه وافتقاره وخروج الأنبياء من صلبه ، كان خيرا له من الجنة والتلذذ والتنعم فيها . " (15) بأدنى تأمل في هذا النص من التفسير للسلمي ندرك جليا أن ما يبدو شرا هو في حقيقته

خيرا ففتنة آدم كان من نتائجها خروجه من الجنة والحرمان من نعيمها ، غير أن هذا الخروج والحرمان من نعيم الجنة ولمذاتها كان يحمل في طياته خروج الأنبياء وصفوة الخلق من صلبه وفي ذريته

وكأن السليبي يريد أن يقول: على المرء أن لا يرى في الفتنة والبلاء آلامها الفانية ويغفل عن لذاتها الباقية فهو مقام يصل إليه المرء بسلوك طريق المجاهدة والتزكية إلى أن يستوي عنده الألم واللذة في قرب الله تعالى ومعيته. وفي الحذر والاحتراس من الشيطان يقول القشيري: "... قوله جل ذكره: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتُهُمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الأعراف: 26

لا يحصل للعبد احتراس من رؤية الشيطان إياه وهو عنه غائب إلا برؤية العبد للحق - سبحانه - بقلبه ، فيستغيث إليه من كبده ، فيدخله - سبحانه - في كنف عنايته فيجد الخلاص من مكر الشيطان " (16) إنها مرتبة الإحسان ، غاية كل مريد ومنتهى كل سالك لطريق التزكية " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك " وعندها تتدخل العناية الإلهية فلا يضر المرء مكر الشيطان وكبده قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ الحجر: 42

نخلص إلى القول: أنه عندما تتغير المقاييس بمقاييس النظر إلى الأشياء فيرى السالك ما أصله وجع وألم هو لذة واطمئنان عندها تتغير دلالات الألفاظ الذي تفقد معه سمة التواصل ، فنحن أمام تواصل من نوع خاص تحتاج إلى تفسيره وفك رموزه. وفي الوقت ذاته لا يمكن لأي كان أن ينكر على الصوفية أمرهم هذا ما دامت تتعلق بالمواجيد التي لا تخضع للاختيار العلمي .

فتنة الناس بعضهم ببعض :

قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ " الفرقان 20

قال السليبي (ت 412 هـ): "قال الواسطي رحمه الله : ما أوجد موجودا إلا لفتنة وما أفقد

مفقودا إلا لفتنة. قال الله تعالى: "وجعلنا بعضكم لبعض فتنة" قال أبو عثمان: في قوله: وجعلنا بعضكم لبعض فتنة قال: في الخلق فتنة من وجوه فأعظم الفتنة أن يشغلك عن الله ويتعلق قلبك بهم عند الفاقات والحاجات فهم محتاجون مثلك إلى من هو كاشف الكرب، وقاضي الحاجات" (17)

أعظم فتنة انشغال القلب عن الله تعالى وتعلقه بغيره وهذا بلا شك خلل في العقيدة وبالضبط في توحيد الربوبية، فهو انصراف عن عبودية الله تعالى ومناف لها. فعلى المرء أن يعيش متقلبا بين الصبر والشكر صبر على البلاء وشكر على العافية سلامة القلب وطهارته وتزكياته حاضرة وبقوة في تفاسير الصوفية ولا ريب فذلك فعلية مدار الإيمان وبسلامته يفوز المرء في الدارين الدنيا والآخرة قال تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الشعراء: 88-89

وغير بعيد عن هذا ما ذهب إليه القشيري (ت 465 هـ) في تفسيره للآية فقال: " (فضّل بعضا على بعض، وأمر المفضول بالصبر والرضا، والفاضل بالشكر على العطاء) وخصّ قوما بالبلاء وجعلهم فتنة لأهل البلاء، وخصّ قوما بالعوافي، وآخرين بالأسقام والآلام، فلا لمن نعمه مناقب، ولا لمن امتحنه معائب.. فبحكمه لا يجرمهم، وبفضله لا بفعلهم، وبارادته لا بعبادتهم، وباختياره لا بأوضارهم، وبأفداره لا بأوزارهم، وبه لا بهم." (18)

فتنة داود عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ " ص: 23

اختلف العلماء والمفسرون في سبب الفتنة التي أوقعه الله تعالى فيها؟ وكان من الطبيعي أن يختلفوا في ذلك، فالآيات السالفة الذكر لم تبين طبيعة هذه الفتنة، فلم تزد على قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ للمفسرين في بيان طبيعة الفتنة التي وقع فيها سيدنا داود عليه السلام أقوال عديدة، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، وتراوحت آراءهم بين من ينفي البتة وقوعه في الفتنة بتأويل الآية وبين مثبت لوقوعه فيها، وهم جمهور العلماء والمفسرين، وهؤلاء في بيانهم لطبيعة الفتنة منهم من حمل النص القرآني على الحقيقة

ومنهم حملة على المجاز ' منهم من اقتصر على ما ذكره الله تعالى في كتابه الكريم دون مجاوزته وهذا في غياب النصوص الصحيحة الثابتة من السنة ، ومنهم من أسند قصته من روايات عن ابن عباس والسدي وعطاء والحسن وقتادة بعضها مرفوعا وبعضها موقوفا مع ضعف سندها . قال السلي (ت 412 هـ): "وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راکعاً وأتاب قال لقد ظلمك الآية : قال عثمان : أيقن داود بأوائل البلاء فالتجأ إلى التضرع . قال أبو سعيد الخراز : زلات الأنبياء في الظاهر زلات وفي الحقيقة كرامات وزلف ألا ترى إلى قصة داود ﷺ حين أحسن بأوائل أمره كيف استغفر وتضرع فاخبر الله عنه بما ناله في حال خطيئته من الزلفى فقال : وظن داود أنما فتناه فتضرع ورجع وكان له بذلك عندنا زلفى وحسن مأب " (19) خطيئة داود عليه السلام كشفت عن جوانب راقية في أخلاقه ومقامه من حسن التضرع والرجوع إلى الله تعالى والإنابة هي الرجوع من الغفلة إلى الذكر مع انكسار القلب وانتظار المقت . وهي أجل من التوبة لأن التائب يرجع نفسه فيسعى تائبا ولا يسعى متيبا إلا من رجع على ربه بالكلية وفارق المخالفات اجمع . " (20) وأضاف " قال القاسم : إنابة العبد أن يرجع إلى ربه من نفسه وقلبه وروحه فإنابة النفس أن يشغلها بخدمته وطاعته وإنابة القلب أن يخليه مما سواه وإنابة الروح دوام الذكر حتى يذكر غيره ولا يتفكر إلا فيه " (21) أن فتن الأنبياء لحكمة الارتقاء بهم وتخليصهم لعبادة الله تعالى ليكونوا قدوة للناس

الخصمين جاءت في قوله ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَأَحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغِيَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ ص : 20 - 21

قال القشيري (ت 465 هـ) " .. أرسل الله إلى داود عليه السلام ملكين من السماء على صورة رجلين فتحا كما إليه تنبها له على ما كان منه من تزوجه بامرأة أوريا ، وكان ترك ذلك أولى - هذا على طريق من رأى تنزيه الأنبياء عليهم السلام من جميع الذنوب . فضحك أحدهما في وجه صاحبه ، وصعد إلى السماء بين يديه ، فعلم داود عند ذلك أنه

تنبيه له وعتاب فيما سلف منه ، وظنّ واستيقن أنه جاءته الفتنة الموعودة " (22)
 عند الصوفية فتنة داود عليه السلام لم تعدو أن تكون تركا للأولى ، ومع ذلك أورثته ذلا
 وانكسار وهو يترقب الفتنة التي جاءت في صورة قضاء في خصومة بين ملكين وأظهرت إنابة
 ورجوع داود عليه السلام في زلة أورثته صفات ممكنته من الوصول إلى الله تعالى فهي
 بالتأكيد خير من طاعة تورث المرء إعجابا
 فمقياس الطاعة والمعصية ليس كامن في ذواتهما ولكن فيما تفرزه وتكشفه من سريرة المرء
 وما تنطوي عليه ويتأكد مرة أخرى مسألة تغير الدلالات لمصطلحات هي في الأصل قديمة
 ونكاد نلمس هذه النزعة في استقراء تفاسير الصوفية .
 لنخلص إلى القول أنه اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد ولا شك أن هذا التوجه وهذا
 الفهم لكتاب الله تعالى أبواب الأمل أمام العصاة ، ويدفع عنهم القنوط من رحمة الله . وبالله
 التوفيق

الهوامش

- (1) الحديث: رواه الترمذي في "جامعه" رقم: (3127) وغيره، وهو حديث مرفوع
- (2) تفسير الشعراوي ، ج 10 ص 6031
- (3) صحيح البخاري رقم: 6502
- (4) مناظرة بين الشيخ محمد الزغي والشيخ محمد الكتاني هل التصوف خروج عن منهج الإسلام؟
- (5) محمد السيد حسين الذهبي (المتوفى: 1398هـ) ، تفسير ابن عربي للقرآن حقيقته وخطره ، ط2 الجامعة الإسلامية، المدينة
- (6) الزركشي (ت 794 هـ) البرهان في علوم القرآن ج 2 ص 1
- (7) صحيح البخاري ، رقم: 4970
- (8) فؤاد عبد الباقي (ت 1388 هـ) محمد ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، دار الكتب المصرية القاهرة مصر ط1 ، ت ط 1364
- (9) السلمي (ت 412 هـ): أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى الأزدي "حقائق

التفسير" تحقيق: سيد عمران ، دار
م ج 2 ص 113

(10) رواه الترمذي وقال حديث حسن

(11) القشيري (ت 465 هـ) عبد الكريم بن هوازن ، " لطائف الإشارات " : تحقيق :
إبراهيم بسيوني ، ا

(12) تفسير القشيري : ج 2 ص 500

(13) البهقي (المتوفى : 458 هـ) أحمد بن الحسين بن علي ، شعب الإيمان؛ تحقيق : عبد
العلي عبد الحميد حامد، ط 1 ، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض ، ت ط
2003 م

(14) تفسير القشيري : ج 6 ص 86

(15) تفسير السلمي : ج 1 ص 225

(16) تفسير القشيري : ج 2 ص 360

(17) تفسير السلمي : ج 2 ص 60

(18) تفسير القشيري: ج 5 ص 363

(19) تفسير السلمي : ج 2 ص 184

(20) تفسير التستري ج 1 ص 444

(21) تفسير التستري ج 2 ص 184

(22) (تفسير القشيري : ج 6 ص 477